صورة المثقف في الرواية العربية
(قراءة في ثلاثية أحلام مستغانمي)

أ/ بوسكاية شهرزاد
المركز الجامعي ميلة-الجزائر

الملخص:

تتميز الرواية بكونها أداة تعبير قادرة على رصد التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية،فهي على حد تعبير ستاندال مرآة تجوب الشوارع، تعكس هموم الناس، آمالهم و أحلامهم و نوافذها مشرعة على عوالم سحرية متعددة: الفانطستيك ،الأسطورة، التاريخ، الموروث.إن الرواية مجال تتعدد فيه الشخصيات و بالتالي تتعدد الرؤى والأصوات وحتى الإيديلوجيات، كما أن لها القدرة على اختراق المسكوت عنه في الخطاب السياسي والإيديلوجي.

و يعبر الخطاب الروائي بصورة ما عن تمثلات المثقف و تجلياته ويقدّم صورة تعكس شيئا من واقعه في علاقاته بالمجتمع و السلطة و الآخر، وكثيرا ما تتناول الرواية المثقف بوصفه ذا وعي نضالي نابع من الإحساس بالظلم المسلط على الإنسان العربي من قبل الأنظمة السياسية، فتتحول الثقافة إذ ذاك إلى أداة تهدف إلى التغيير.

ولم تعد الرواية الحديثة وسيلة للترفيه والتسلية والهروب من الواقع ومن رتابة اليومي، بل كفعل وعي وأداة تعرية وفضح. والروائية أحلام مستغانمي واحدة من الكتاب الذين وظفوا الخطاب الروائي لكسر الطابوهات واختراق المسكوت عنه:(السلطة- الدين- السياسة)، فصورت ملحمة سقوط الذات على عتبة السلطة. و تناولت جدلية السلطة

والمثقف؛ إذ تطالعنا أزمة المثقف من خطابها. إن مثقف أحلام مستغانمي يجعل من الأم العظيم وجودا لحريته؛ إنه محمد اسياخم الذي وظفت ملامحه في ذاكرة الجسد معبرة بذلك عن ثورتها ضد السلطة التي تكمم أفواه الناس: "يقضي الإنسان سنواته الأولى في تعلم النطق وتقضي الأنظمة العربية لبقية عمره في تعليمه الصمت" (ذاكرة الجسد ص:28)، بل الأكثر من ذلك أنها ترسم صورة كاريكاتورية للذين يريدون الانتساب للنخبة (ينظر ذاكرة الجسد ص:83).

كما تقوم بفضح و تعرية اضطهاد السلطة للمثقف في مشهد يوحد بين هزائم الإنسان و هزائم الوطن و ترمز لذلك بحزيران 1967 و ما حدث لخالد 1971 :" سجنته الجزائر لطول لسانه" (ذاكرة الجسد ص:243).

و تطالعنا صورة المثقف الذي يعاني من تهميش السلطة ؛ فالنظرة إليه دونية:" الجزائر بلد لم يسأل فيه المثقفون و لا النساء عن رأيهم" (فوضى الحواس ص:247)

وتقدم أحلام مستغانمي نموذجا آخر للثقف ، أو بالأحرى لمدعي الثقافة المتنطعين مشككة فيما إذا كانت الجزائر قد استقلت و هي تحت حكمهم:"مثقفين يتعسكرون أو عسكر يدعون الثقافة" (ذاكرة الجسد ص:234)

الملخص بالانجليزية

The image of the éducateur in the movelistic speech
Unit : Assimilation of the educated in a literal text

The movel is spécialized by being a mean of express in able to check social economic and political transformation ,as standal expresses it is a touring missos in the streets which reflexes peoples sadness , hopes and dreans, it ‘s windows opened on misterious and différent words : the fanta stic,legend ,heritated history .

The movel is a field where pers-onalidies differ and so sounds and sights differ and even ,diologies .

The movelistic speech expresses the mani festations of the educated and gives an image which reflects something from his reality ,his relation with …….ciety and other peaple . Mostof the time movel dexribes the educated as a cenxious pers an who feels autoracy on Arabian persan by political systems, here culture because a mean which we and aim to change.

Modern move lis no more a mean of entertainment and exaping from reality and recent routine but it is rather a mean of campromize ,Ahlam Mustghanmi is are of the writes who uses the movelistic speech to destroid the « tabo » and secret subjects (religion ,politic,authority), she talked about authority via the educated,through her movel she represented the educated crisis ,she ment , ned Med Isscukhem

In her movel « the memory of the body Dakirat el Jassed » stating her revolution agcunst ……. Which closes people's mouthes (man passes most of histime learning to speak and arabic systemes passes her time teaching him silence) (Dakirat El Jassad p28) M…. than that she draws caricatural picture for those who want to be are of the motables , she also wants to stripoff the oppress an of authority to

the educated in a show where it gathers man and cauntry failuaw.

في زمن الصراعات الطائفية الحادة، و في زمن التراشق و التلاسن والصراع المذهبي...في هذا الزمن المليء بالأحقاد والإحن والتباين والتشظي... يتم تسويق المواقف النمطية التي تهدف إلى ترسيخ التفكير النزعوي، وتجسيد النظرة العرقية الشوفينية التي تطمس وبشكل قسري وقيصري المشتركات الإنسانية ومساحات التوافق الجبلي لهذا فقد بات من الضروري على المثقف أن يتخذ أدواره الفاعلة، لأنه صاحب مهمة حضارية لما يمتلكه من فكر تنويري طلائعي وأن يهتم بالمعركة المصيرية التي

تخوضها أمته اهتماما يقتضي الوعي الصادق العميق والمثقف العضوي على حد رأي غرامشي ليس ذلك الشخص الحامل لثقافة معينة أو حمولة معرفية في مجال ما بقدر ما هو ذلك الشخص المتشبع بفكر التنوير والقيم الإنسانية ويمتلك وعيا جماهيريّا ينطلق من رفضه لكل أشكال الظلم والاستبداد والاستلاب، لذا فإن دوره يتعاظم في ظروف الاستبداد والتخلف والجهل ويقابل المثقف العضوي مثقف السلطة الذي ينساق خلف المغريات التي يبذلها النظام

من أجل تحويله إلى ظاهرة صوتية تخدم النظام وتحدو على حدوه.

سلطة المثقف أم مثقف السلطة:

تختلف الآراء كثيرا حول تحديد مفهوم المثقف، والأغلبية ترى أن المثقف هو الحاصل على شهادة جامعية والبعض الآخر يرى أنه المفكر المرتبط بقضايا عامة تتجاوز حدود تخصصه، و يعرف أيضا أنه المبدع في مجالات الفنون والآداب والعلوم، ويعرف علىأنه واحد من النخبة أو الصفوة ذو فاعلية اجتماعية و صاحب رؤية نقدية [1]

وأيّا كان التعريف فإن هناك اجماع على أن المثقف تعزى له الأعمال الذهنية.

ولكن تعريف المثقف أنه المتعلم و حصر الثقافة في الشهادة الجامعية غير كاف لتحديدمفهوم المثقف، صحيح أن التعلم شرط لازم و لكن غير كاف، فليس كل متعلم مثقف،و ذلكأن للمثقف وظائف ومهام لأن الثقافة في أنبل معانيها تعني اعتماد أسلوب في الحياة ينسجم

مع مبادئ خدمة الوطن؛ إنها أداة لاكتساب فاعلية النضال ضد التخلف الاجتماعي وضد السلطة الجائرة والأنظمة الفاسدة وثمة مكمن سلطته وثقافته[2]، ينبغي له أن يهتم بالمعركة المصيرية التي تخوضها أمته اليوم اهتماما يفضي إلى الوعي الصادق والقوي الذي يدفعه إلى الثورة ضد كل أشكال الظلم والجبروت.لا بد للمثقف العربي إذن أن يتخذ أدواره الفاعلة و أن يمارس سلطته المعرفية؛ لأن الثقافة معرفة والمعرفة سلطة تسيطر كقوة في المجتمع، والقوة تضعف بدون معرفة تنظمها وتقودها نحو الأهداف المتوخاة.

لقد ازدادت مسؤولية المثقف العربي اليوم و قد بات لزاما عليه بحكم سلطته الثقافية المعرفية أن يكون رائدا لأمته يبصرها بالأخطار التي تهددها في زمن و في لحظة تاريخية منفلتة من تاريخ المأساة العربية؛ لقد أفاقت الشعوب العربية والعالم ككل على إنسان عربي جديد من حيث العقل والقلب، ومن حيث الرؤية والسلوك.

لذا فإن أمام المثقف العربي مجالين للعمل؛ المجال العربي والمجال العالمي لكل منهم أسلوبه، ففي المجال العربي ينبغي عليه أن:

– أن يكون حكيما فيما يعالج من مشكلات الأمة و قضاياها بحيث لا يبالغ في تضخيم الأزمات و حتى الهزائم، ولا في تهويتها حتى لا يميل بها إلى اليأس والقنوط و لا إلى الاستهانة والغرور.

– أن يلتزم شرف الكلمة ويراعي ما يجب لها من أمانة وصدق فلا يداجي ولا يتملق

– أن يعتز بكرامته واستقلال رأيه فلا يبيعهما بأي ثمن مهما كان سلطانه، إلا أن يرى وجه الحق فيرجع ألي

– أن يكون على وعي تام بالتاريخ النضالي لأمته وعيا يصل حلقات التاريخ العربي بملاحمه و بطولاته

– أن يعي دوره في المعركة فلا يبدد مواهبه فيما لا يجدي نفعا ويوظف سلطته المعرفية لخوض المعركة وفي المجال العالمي عليه أن يراعي أنه يخاطب شعوبا اجنبية تجهل الكثير من الحقائق التي تتصل بنا ولا سبيل إلي ذلك إلا بالدراسة المستفيضة الواعية لتاريخ تلك الشعوب.

ولكن يسعى المثقف... وتسعى السلطة إلى تدجينه" لأن المثقف ليس داعية مسالمة ولا داعية اتفاق في الآراء ،لكنه شخص يخاطر بكيانه كله لاتخاذ موقفه الحساس وهو موقف الإصرار على رفض الصيغ السهلة والأقوال الجاهزة المبتذلة أو التأكيدات المهذبة القائمة على المصالحات اللبقة والاتفاق مع كل ما تقوله السلطة"[3]

لقد أصبح المثقف إشكالية،لأنه الأكثر وعيا والأكثر استنارة، والأكثر تقدمية و عقلانية ،ولكن الواقع والسلطة تصدمه في وعيه بما لا يعيه، فيبدو مشوها أمام أحداث كان الأولى أن يتعرض لها، وهنا يكون أمام السلطة خياران؛ إما أن تتخذ شرعيتها من سلطته المعرفية وإما أن يوضع على الهامش هذا إذا لم يغتال.و هنا ينبغي التمييز بين المثقف العادي التقليدي والمثقف الثوري؛ فالمثقف التقليدي هو في أكثر حالاته نضوجا نموذج ليبرالي يؤمن بالتغيير التدريجي والمرحلي وهو معارض للثورية يؤمن بالاستقرار والثبات: "وبقاؤه على كرسي الوعظ مرتبط ببقاء كرسي السلطة

أي مرتبط ببقاء النظام الذي نصبه وصيا"[4]، إنه مثقف السلطة؛ يأتمر بأوامرها.

أما المثقف الثوري، أو المثقف العضوي على حد تعبير غرامشي، فهو الأكثر عرضة للتهميش، و هو دائم الجدل مع السلطة حتى ليظن البعض أنه يكره السلطة كراهية مبدئية لايديلوجية، أي أنه يريد عالما بلا سلطة لكي يمارس فوضاه على حدّ تعبيرهم[5]

الصورة الروائية للمثقف:

لا غرو أن النص الأدبي ذو هوية خاصة به، و هو علاوة على هذا جزء من بنية مجتمع محدد، ومن حياة كاتب محدد[6]. والنص الروائي خاصة رصد للواقع وملابساته، والروائي بصفته مثقف غالبا ما يُضمنّ عمله ملامح من صورة المثقف وفق منظوره الخاص الذي كثيرا ما يتوافق مع صورة المثقف الواقعية، والأكيد أن صورة المثقف التي تطالعنا من الرواية تعبر فعلا عن موقع المثقف في المجتمع؛ وهو موقف يتأرجح بينحدين؛ إما الرفض المطلق وإما الأصولية و الانتهازية.

ومن الطبيعي أن الرواية حينما ترصد صورة المثقف فإنما ترصد في الوقت ذاته التحولات الاجتماعية والاقتصادية و التاريخية التي طرأت على المجتمعات العربية وتتناول دور المثقف وموقفه إزاء ذلك. وكما شهدت المجتمعات العربية تحولات كذلك شأن المثقف؛ إذشهد هو الآخر مدا وجزرا وكانت أدواره مختلفة باختلاف تلك التحولات، وأخذ سمات وتسميات مختلفة؛ من المثقف التنويري إلى المثقف النهضوي إلى المثقف الطليعي، إلى المثقف المؤسساتي إلى مثقف السلطة. و كلها تسميات تعكس مراحل بارزة من

تاريخنا العربي المعاصر،فعلى سبيل المثال عكست روايات عبد الرحمان منيف صورة المثقف الطليعي في صراعه مع الأنظمة، وهو صراع ينتهي في رواياته دائما بانكسار المثقف أمام صخرة السلطة.

و ينطلق مرزاق بقطاش من إشكالية هل يمكن ممارسة السياسة دون ارتكاب الجريمة سواء منها الجسدية و الأخلاقية؛ إنها الفرضية التي انطلق منها الروائي في روايته "عزوز الكابران" ليشيّد عالما متخيّلا مليئا بالفواجع والمآسي؛ إنها مغامرة في قلب وعمق السلطة السياسية في الوطن العربي وفي دول العالم الثالث حتى لا نقول الجزائر،ذلك أن الروائي وعبر البطل السارد معلم القرية تحاشى ذكر الأسماء والأماكن وحتى التواريخ، ولكن الرموز واضحة جلية. كتب مرزاق رواية خيالية تصبو نحو تجسيد نموذج مطلق للمثقف،فشخصية المعلم في هذه الرواية هي تجلي لنموذج من المثقف؛ المثقف الذي يتقلد زمام الأمور ويمارس سلطته الثقافية؛فالمعلم هو المحرك الأساسي لأحداث الرواية؛ يرفض إمام المسجد إصدار فتوى ترخص بناء المرصد الذي طلبه منه عزوز الكابران لإعطاء شرعية دينية للمشروع، فيعتقل الإمام(نموذج المثقف الذي يعارض السلطة) و يسجن في الثكنة، ثميتهم المعلم زورا بنيته في حرق الجريدة و يسجن هو الآخر(تلفيق التهم للمثقف) مع الإمام ليدور بينهما حوار فلسفي حول السلطة السياسية والجريمة الأخلاقية [7]

أما في روايته" دم الغزال" فتطالعنا صورة المثقف الذي يغتال،و تكاد تكون هذه الرواية عبارة عن اعترافات موجعة لمثقف اختبر الموت عن قرب:"لماذا نموت نحن الذين نريد أننبني الوطن، أن نضيف شيئا للإنسان في هذه الحياة" [8]

وتبقى رواية دم الغزال صورة مأساوية للمثقف العربي، وليس الغزال إلا مرزاق بقطاش؛ نموذج المثقف الذي يحارب بالكلمة.

وتصور روايات مرزاق بقطاش أزمة المثقف الجزائري التي بدأت منذ الاستقلال وبلغت ذروتها في العشرية السوداء؛ حيث سقطت كل الأقنعة لتظهر ملامح مثقف بلا شكل ولا وظيفة، بل همه الوحيد أن يعيش ويأكل الخبز.

وتمثل رواية عيسى لحيلح "كراف الخطايا" الوجود الملتبس للمثقف، ويتخذ الجنون قناعا ليصور نموذجا آخر للمثقف ؛ إنه المثقف السلفي الذي تغطى بالهوية فعّرته الحرية، عيسى لحيلح أراد في روايته أن يكشف عن ملحمة السيف الذي يعد " أصدق أنباء من الكتب".

أما ابراهيم جبرا فقد رصد حالة المثقف البرجوازي الذ يناقش المسائل من بعيد و ينظر فيهادون أن ينخرط مباشرة في الأحداث. أما المغربية فاتحة مرشيد فتقدم تجلي آخر للمثقف؛ المثقف المحبط الملفوظ من لدن السلطة ومن لدن المجتمع، التائه في محيط غريب عنه[9].

إن وجه المثقف العربي كما يتبدى في النماذج السابقة يكشف عن نسق حياة يتصارع فيها مع السلطة؛ إنه نموذج واقعي وجودي لا مثالي "سبرماني"، يمتلك الهوية والحرية والثقافة ومن خلال هذه الثلاثية يرسم وظيفته في الحياة و تتحدد ملامح علاقته بالسلطة؛ هويته تجعله غريبا وحريته تجعله منتهكا و ثقافته تجعله مستهدفا، بهويته يحيا الوهم، و بحريته يحيا "دنكشوتيا" يحارب الطواحين، و بثقافته يصارع مدا و جزرا سلطويا.

صورة المثقف في ثلاثية أحلام مستغانمي

كثيرا ما كرست الذاكرة الجماعية عالم الكتابة بارتباطه بالفحولة والسيادة الذكورية، ولمتكن المرأة في هذا العالم سوى موضوعا للحكي وملهمة، لكن ما حدث أن المرأة أثبتت جدارتها في عالم الكتابة، وأرجح الظن في فعل الكتابة النسوي أن المرأة الكاتبة استطاعت بوعيها وتضجها الثقافي الذي ولد جراء الصراعات الاجتماعية، أن تتساوى مع الرجلفي فعل الكتابة ليس إحتداء أو محاكاة له ، بل كشفا عن عالمها الإبداعي الخاص.

وأحلام مستغانمي واحدة من المثقفات اللائي يعكس أدبهن الواقع المعيش، وقد أدهشت العالمالعربي بثلاثيتها:"ذاكرة الجسد"، "فوضى الحواس"، "عابر سرير"، و ليس الثراء اللغوي وحده الذي يشدك إلى رواياتها ، بل هو الصورة الحية التي نقلتها عن جزائر ما

بعد الثورة، في هذا السرد الجميل و الكئيب يمكنك أن تستشف الواقع الجزائري الذي لا يختلف كثيرا عن الواقع العربي.كما ترصد ثلاثيتها معانات المثقف وعلاقته بالسلطة.

أ- صورة المثقف فيذاكرة الجسد:

"ذاكرة الجسد" هي ثورة الجزائر و انتصار الجزائر و انهزام الجزائر معا،" هذه الحكايةلا تختصر ذاكرة الجسد فحسب ، و لكنها تختصر تاريخ الوجع الجزائري، الحزن الجزائريو الجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي"[10] كما قال نزار قباني في تقديمه للكتاب.

تروى الحكاية بأسلوب فلاش باك ذكي جدا؛ فهو لا يبقيك في الماضي بل يدخلك إليه مرارا ثم يجذبك إلى الحاضر العصيب، بطلها خالد بن طوبال رسام في الخمسينيات يحمل على جسده ذاكرة الثورة،يعيش مهموما في مرسمه في باريس بعد أن رفض المنصب الذي قدمه إليه النظام الجزائري الذي تقلد السلطة بعد الاستقلال، خالد هو نموذج المثقف الذي رفض بيع ضميره للسلطة، بينما استطاعت أن تفسد ضمائر باقي المثقفين من خلال تعيينهم وأقاربهم غير الأكفاء في مناصب مهمة لتضمن شرعيتها.

ويحمل خالد وجهان؛ الأول الانتماء الماركسي حين كان في المعترك،لكنه تحول بعد ذلك إلى بطل وجودي، كان في البدء بطلا من أجل الشعب(المثقف الذي يناضل من أجل حرية الشعب، ثم ينتهي من بطل من أجل الشعب إلى بطل وجودي يسعى لإثبات ذاته بعد أنتحول إلى رسام بعد بتر ذراعه فأصبح جسده يحمل ذاكرته؛ إنها ذاكرة المثقف، ذاكرة متعبة أضناها القلق الوجودي.

ويطالعنا من الرواية نموذج آخر للمثقف؛ إنه المثقف البائس الذي ضاقت عليه السبل ممثلا في شخصية شقيق خالد نموذج المثقف الذي يعيش الضياع، فهو معلم بالكاد يحصل على قوت يومه، يستميت في البحث عن واسطة تسهل له العمل والعيش في المدينة. وما إن يقترب من تحقيق حلمه حتى يقتل بأيدي أصوليين.

وهناك حضور في ذاكرة الجسد للمثقف المطارد من قبل السلطة ممثلا في شخصية زياد الشاعر الفلسطيني الذي يؤمن بقضيته و يعيش حياة المناضلين, و لم يكن في انتظاره سوى رصاصة الموت؛ إنه المثقف الذي

يغتال لا لشيئ إلا لأنه يناضل من أجل قضيته، لا لشيئإلا لأنه مثقف:"لنا في كل موطن مقبرة، على يد الجميع متنا..باسم كل الثورات وباسم الكتب"[11].

ويحدث موته فجيعة؛ فجيعة مآل المثقف: "وهناك من هنا وهناك، ما زال ينتظر رحلتهاالأخيرة، في مخيم في بيت، أو حتى في بلد عربي ما... وبين كل قطار و قطار قطار...

بين كل موت وموتموت...

... بعدهم كثرت "وكالات السفريات" و "الرحلات الجماعية" أصبحت ظاهرة عربية يحترفها كل نظام على طريقته" [12]

ب- صورة المثف في" فوضى الحواس":

تعد هذه الرواية رائعة من روائع أحلام،إنها رواية الدهشة والصدمة؛تدهشك بلغة كثيفة، دالة وحالمة تتحدث الرواية عن رجل ذو فلسفة غريبة فوضوية، هو امتداد لبطل ذاكرة الجسد خالد بن طوبال ولكن في تجلّ آخر له.

ومن فوضى الحواس يطالعنا وجه آخر للمثقف؛ إنه المثقف الصحفي متمثلا في شخصية صاحب النظارة السوداء وهو صحفي أصيب إصابة عمل أدت إلى بتر ذراعه، و شخصية عبد الحق صحفي مناضل. والرواية عبر فصولها الخمسة: "بدءا"- " دوما"- "طبعا""حتما' و "قطعا" هي في الأساس رحلة في الذات والبحث في هوية المثقف وكينونته من خلال بطلي الرواية صاحب النظارة السوداء ممثلا ب "هو" وعبد الحق.

"هو" بطل زئبقي متمرد (المثقف المتمرد)، يظهر ويختفي على امتداد فصول الرواية مانحا نفسا طويلا للروائية لتقدم شخصياتها وفق بعد فلسفي. هو رجل الوقت سهوا، حبه حالة ضوئية في عتمة الحواس، يأتي ليدخل الكهرباء إلى دهاليز نفسها، يوقظ رغباتها المستترة؛ يشعل كل شيئ داخلها ويمضي، وفي إحدى المحطات تحاول استدراجه للبوح و لكنه يمارس لعبة التخفي، ولكنها استطاعت أن تتعرف على جزء من حياته؛ إنه مثقف جريئ خبر الحياة ومارس العمل النضالي ضد الظلم والتسلط حتى فقد ذراعه، ثم اشتغل صحفي تحت اسم مستعار هو" خالد بن طوبال"[13].

خالد ذاكرة الجسد مثقف ناضل بقوته و جسده إبان الثورة، وخالد فوضى الحواس مثقف صحفي يناضل بقلمه ضد السلطة الفاسدة و كلاهما يمثل المثقف الثائر المتمرد.

أما عبد الحق فمثقف صحفي؛ رجل مميز المظهر يرتدي قميصا أسود و نظارات سوداءفي العقد الرابع من عمره، رجل له خطى واثقة و أناقة رجولة في غنى عن أي جهد[14]

ظلت الساردة تلاحقه من أجل التعرف على هويته لكن ذلك لم يحدث لأنه اغتيل(اغتيال المثقف): "هذا الرجل الذي لا أعرفه وأعرف كل شيئ عنه، ماذا يمكن للجرائد أن تضيف إلى معرفتي به سوى تفاصيل موته" [15]

وما تقديم أحلام لبطليها المثقفين إلا إجراء روائيّ يعبر عن حقيقة ضائعة ومسكوت عنها؛حقيقة المثقف.

ج- صورة المثقف في" عابر سرير"

وتمضي أحلام في تلقف شخصية المثقف في الجزء الثالث من رواياتها، وبالأثاث نفسه الذي تشكلت منه رواية " ذاكرة الجسد" و " فوضى الحواس" عبر ذاكرة زيان الذي يحيلنا على زياد الشاعر الفلسطيني الذي يتقاسم معه ثلثي الاسم و كامل النزف والوجع؛ وجع المثقف العربي ومأساته، وعبر شخصية خالد؛ أنه خالد عابر سرير مثقف آخر ووجع آخر،خالد ذاكرة الجسد رسام يحمل على جسده ذاكرة وطن، وخالد فوضى الحواس صحفي يختزل ذاكرة الوطن في قلمه، و خالد عابر سرير مصور يعكس عبر التصوير الفتوغرافي جثة الجزائر المنقسمة بين جثة الكلب وصورة الطفل المذعور الذي التقط زيان صورته بعد أن ذبح الإرهاب كل عائلته أمام عينيه[16]، وخالد ذاكرة الجسد يرسم جسور قسنطينة المعلقة بين موتين.عبر عابر سرير تصفي أحلام حساباتها مع الوطن الذبيح و تنعى وضع المثقف وتتبع معاناته، إنه المثقف الصحفي و المثقف الروائي الذي يفر ويغترب خوفا من السلطة أو هذه المرة خوفا من الإرهاب: "لا أدري كيف أوصلني التفكير إلى ذلك الكائن الحبري الذي انتحلت اسمه صحافيّا لعدة سنوات وكنت أوقع مقالاتي محتميا به من رصاص القتلة المتربص بكل قلم"[17].

وتنقل لنا أحلام مشهدا آخر أكثر غرابة عن المثقف الذي صدرت فتوى بسفك دمه: "... أماما أوصله إلى هنا فتلك رواية غريبة تصلح لأن تكون فيلما سنمائيا، حتى أن صحفا غربية تناقلت قصته بعد أن أصبح رمزا لعبثية ما يحدث في الجزائر و نموذجا لقدر المثقف الذي

أفتى البعض في المساجد بسفك دمه"[18]

وتتجلى هذه الصورة في شخصية مراد المثقف المعروف في قسنطينة باتجاهاته اليسارية وتصريحاته النارية ضد المجرمين إضافة إلى دار النشر التي يديرها" ذات مرة غيّر وجهة سلاحه وراح يطلق رصاصه على ذلك الجنرال الذي كان يتقدم مبتلعا كل شيئ في طريقه"[19]، مراد مثقف:" يرفض أن يتحول الناس إلى متاريس بشرية يحتمي خلفها قطاع الطرق من جهة وقطاع الأعناق من جهة أخرى متراشقين بأرواح الأبرياء" [20]

والروائي مثقف آخر يحتمي بالكتابة:" تبحث عن الأمان في الكتابة يااللغباء" [21]، ويتخفى خلفها لتمرير أفكاره:" ذلك أن الرواية لم تكن بالنسبة لها سوى آخر طريق لتمرير الأفكار الخطرة تحت مسميات بريئة"[22]، فيضحى للنص سلطة يوظفها المثقف ليمرر عبرها رسائل مشفرة ويتخذها وسيلة للفضح والتعرية:"... في الواقع كنت أحب شجاعتها عندما تنازل الطغاة و قطاع طرق التاريخ، و مجازفتها بتهريب ذلك الكم من البارود في كتاب" [23]

ولكن الكتابة و سلطة النص تلتبس وتتحول إلى فعل للتيه:" فاكتب أنت الذي ما زلت لا تدري بعد إن كانت الكتابة فعل تستر أم فعل انفضاح، إذا كانت فعل قتل أو فعل انبعاث" [24]

وهل تكفي الكتابة لدحر السلطة ومنازلتها:" كنت تتمنى لو أطلقت النار على كل الطغاة

بجملة لكن من تنازل أيها الكاتب بقلم، في نزال كل غرمائك فيه يتربعون على عرش من الجماجم" [25].

وحينما تضحى الكتابة شبهة لا يبقى أمام المثقف إلا الإبحار في غياهب الذات:" من تكون لتحاول الثأر لكل الدم العربي بكتاب، وحده الحبر شبهة أيّها الجالس على الشبهات. أكتب لتنظيف مرأبك من خردة العمر، كما ينظف محارب سلاحا قديما" (26)

ومن كلّ النماذج السابقة نستنتج أن تصوير أحلام لأبطالها من المثقفين لم يكن غير إجراء روائيّ يعبر عن حقيقة ضائعة و مسكوت عنها؛ حقيقة المثقف العربي الذي يبحث عن مستقر له و عن هوية يحتمي بها من السلطة في ظل التكالب و المتاجرة في كل شيئ حتى في الوطن، و إذا كانت كاتبتنا تختار الموت الحتمي لمثقفيها فهل يعني هذا أن فرصة الإصلاح بعيدة في وقت يعيش فيه الوطن العربي بعيدا عن الإطار العالمي و بعيدا عن مجريات التغيير الساعية ،هل ترمي الكاتبة إلى تمرير فلاشات من خلال مثقفيها عن عجز الأنظمة العربية في إحلال نسق سياسي خاضع لمعايير الديمقراطية الحقيقية(27).

و هل مثقفي أحلام مستغانمي مخلوقات حبرية أم شخصيات بملامح واقعية و هل تلقفتهم عن نموذج حيّ.

يبدو أن الروائية أحلام مستغانمي و إن كانت تتلاعب باللغة و تخرجها من معانيها القاموسية إلا أنها لا تتلاعب بالواقع و لا تخرجه من حقيقته، أفلم يكن والدها " سي الشريف" مثقفا نفي إلى تونس،ليكون بطلا مثقفا مارس بشكل أو بآخر تأثيره على الكاتبة التي شكلت من بطولته أبطالها و نسجت من أطيافه أبطالا وصورا لمثقفين عاشوا القهر والتيه و الاغتراب في زمن يذبح فيه الوطن.

لقد ذهب بعض النقاد إلى أن كل بطل من أبطالها " محمد الشريف" والدها الذي طبعها بشخصيته، وما من شك أنها تأثرت به كمثقف غرف من الأدب الفرنسي وتأثر بفيكتور هيغو وجان جاك رسو.

ولا شك أنها استطاعت أن تجسد شخصية المثقف ببراعة المحترف وقدمت لنا تفاصيل شخصية صاحب المعطف و شخصية خالد بن الطوبال وزياد وزيان ومراد المثقفون الذين أخذت ملامحهم من واقع المثقف العربي أو من شخصية والدها أو من رجل الوقت المناضل والمثقف والعشيق،المنفلت من براثن روائية خبيرة بخبايا السرد قدر خبرتها بالواقع العربي،والملتفتة إلى واقع نظرائها من المثقفين فتجعل منهم كائنات حبرية تتشكل حسب رغباتها ووفق جغرافية المتن.

خاتمة:

المثقف في ظل السلطة إما أن ينتحر فكريّا أو يغترب أو يدخل الصف كما يقال، وعليه أن يختار بين أمرين أحلاهما مر؛ إما الصمت و إما الاغتراب وبين هذا وذاك تبدأ ملحمة السقوط على عتبة السلطة التي نسخت المثقف على صورتين: صورة المثقف "الدونكيشوتي"الذي يعيش الوهم ويحارب الطواحين، أو المثقف "الدونجواني"الذي يرى السلطة امرأة بغواية جديدة وسحر آخر. السلطة عرفت هذا المثقف المزيّف وأغرته بمنصب تحت الشمس، فصار مديرا للثقافة ومسؤولا عن الإذاعة وبدأت الثقافة تتطور إلى احتفالات ومهرجانات لمدن الملح والمثقف هو الراعي لهذه الكرنفالات.

أما المثقف الحقيقي فهو من معذّبي الأرض لأنه يقرأ أنساق السلطة بسياق اللحظة القلقة فيعبر بثقافة التجلي والتحلي عن التخلي.

إنها ملحمة السقوط السندبادي عبرت عنها أحلام في ثلاثيتها فراحت ترصد تدجين السلطة للمثقف وتدشين المثقف للسلطة،معبرة بذلك عن يوتوبيا المثقف العربي.

الهوامش :

1- ينظر أحمد محسن، **مجلة الوحدة، العدد**22، ص44.
2- ينظر **محسن صالح**، " الثورات العربية لسياق التحديات "، **مجلة الأوسط، العدد**22 ربيع 2012، ص39
3- ادوارد سعيد" **المثقف دلسلطة** " ترجمة محمد عناني دار رؤية لنشر والتوزيع بيروت ص167
4- أيمن عبد الرسول " **في نقد المثقف و** السلطة و الإرهاب " رؤية للنشر والتوزيع ط1 2004 ص216
5- **المرجع** نفسه ص105
6- ينظر سماح إدريس " **المثقف العربي و السلطة** " دار الآداب بيروت ص33
7- ينظر مرزاق بقطاس " **عزوز الكابران** " **منشورات البرزخ ,الجزائر**,2007,ص48
8- **نقلا عن محمد بن ساري محنة الكتابة,منشورات البرزخ,الجزائر** ص118
9- ينظر المرجع نفسه ص200
10- **أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد,منشورات أنان,الجزائر**2004 ظهر الكتاب
11- **أحلام مستغانمي** " **ذاكرة الجسد** " ص250
12- المصدر نفسه ص250
13- **أحلام مستغانمي**"**فوضع الحواس** " منشورات أنان, الجزائر2004
14- ينظر أحلام مستغانمي "**فوضى الحواس**" ص6
15- المصدر نفسه ص300
16- ينظر أحلام المستغانمي "عابر سرير"**منشورات أنان,الجزائر**2004ط ح ص22
17- الصدر نفسه ص55
18- المصدر نفسه ص67
19- **أحلام مستغانمي** " عابر سرير " ص20
20- المصدر نفسه ص52
21- المصدر نفسه ص10
22- المصدر نفسه ص17
23- المصدر نفسه ص17

24- المصدر نفسه ص93
25- المصدر نفسه ص93
26- المصدر نفسه ص94
27- ينظر مجلة التواصل، العدد33، مارس2013، جامعة باجي مختار الجزائر، ص40